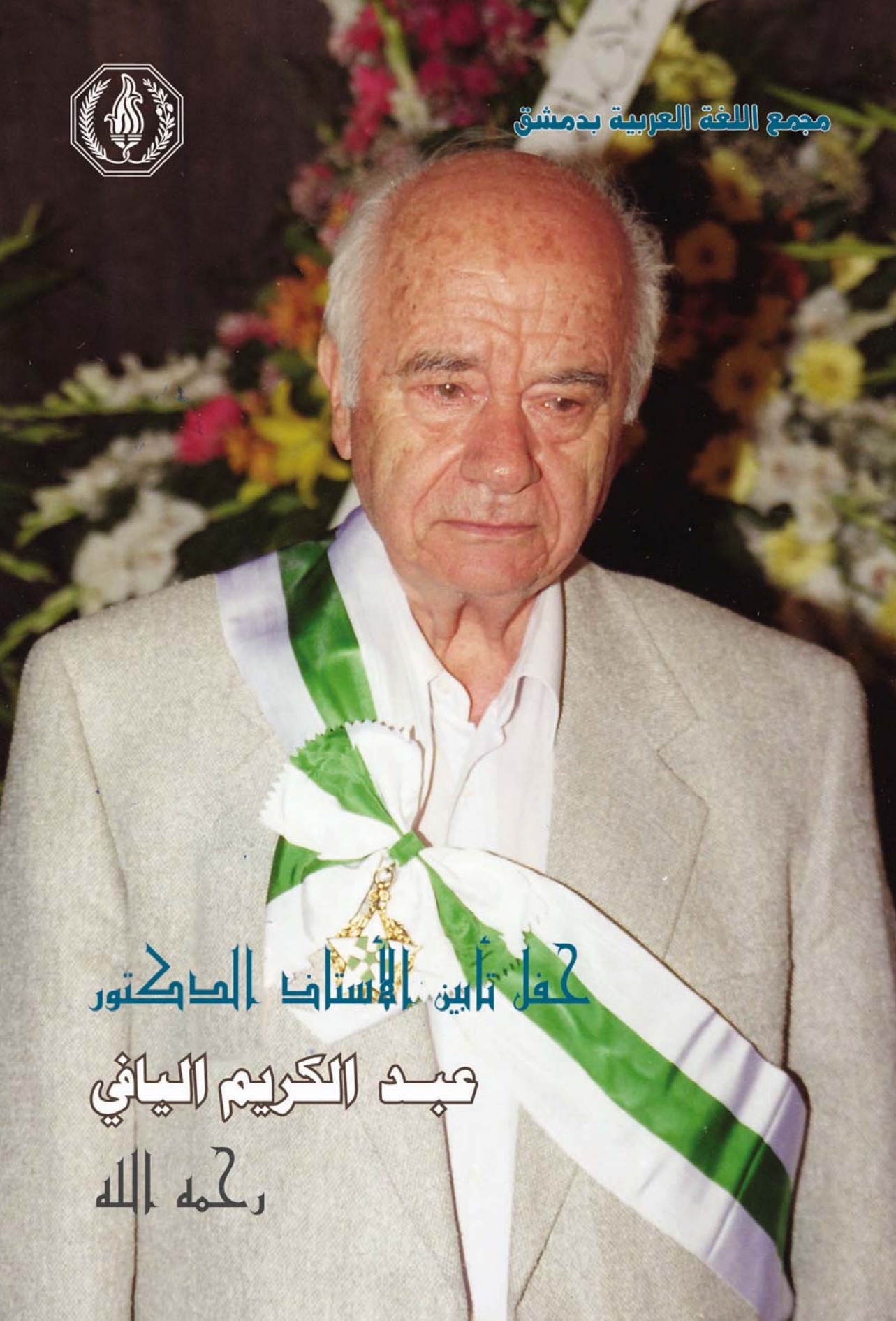

مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

عبد الكريم اليافي

رحمه الله

مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذ الدكتور

عبد الكريم اليافي

رحمه الله

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

صدق الله العظيم

حفـل تأبيـن
الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي
رحمه الله

برعاية السيد الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة، وبالتعاون بين وزارة الثقافة ووزارة التعليم العالي ومجمع اللغة العربية، أقيم في الساعة السادسة من مساء الأحد ٢٥/ ١١/ ١٤٢٩ هـ - ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٨م حفلٌ تأبيني كبير للأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي، رحمه الله، على مدرج قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد.

حضر حفل التأبين نخبة طيبة من الوزراء والعلماء والأدباء والمفكرين وشخصيات الدولة، وأهل الفقيد وأصدقاؤه وطلابه.

وقد اختار الله فقيدنا الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي إلى جواره يوم السبت ١١/ ١٠/ ١٤٢٩ هـ، الموافق ١١/ ١٠/ ٢٠٠٨م، بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء.

- بُدئ الحفل بتلاوة آيات مباركة من القرآن الكريم.
- ثم ألقى الدكتور علي القيم ممثل السيد وزير الثقافة كلمةَ راعي الحفل.
- وألقى كلمةَ مجمع اللغة العربية الدكتور محمد مروان المحاسني رئيس المجمع.
- وألقى كلمة وزارة التعليم العالي الدكتور محمود خضرا، رئيس قسم الفلسفة بجامعة دمشق.
- وألقى كلمة أصدقاء الفقيد الدكتور محمود السيد، نائب رئيس مجمع اللغة العربية.
- وألقى كلمة طلاّب الفقيد الأستاذ جورج صدقني، عضو مجمع اللغة العربية.
- وألقى كلمة آل الفقيد الدكتورة شادن اليافي ابنة الفقيد.
- وقدّم للحفل الأستاذ غسان كلاس مدير ثقافة مدينة دمشق.

وفيما يلي نص الكلمات التي أُلقيت في الحفل.

رحم الله فقيدنا الرحمةَ الواسعة، وأسكنه فسيح جناته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا.

❍ ❍ ❍

كلمة الدكتور علي القيِّم

ممثل السيد وزير الثقافة راعي الحفل

عبد الكريم اليافي، هامة أدبية وثقافية كبيرة، رحلت عن عالمنا في ١١/ ١٠/ ٢٠٠٨، بعد مسيرة عطاء حافلة تركت بصماتها في أجيال عديدة من أبناء وطننا العربي، وفي حركة الأدب والفكر والفلسفة والعلوم.. عبد الكريم اليافي، كان «دكاترة» في دكتور. فهو العالم في السكان وعلم الاجتماع، وهو الشاعر والأديب والفيلسوف والمفكر وعالم التاريخ والرياضيات والعلوم الطبيعية والتراث العربي، وهو الإنسان البسيط المتواضع، الذي استطاع بعلمه وفكره أن يكون محط محبة طلابه ومريديه وإعجابهم.

هو المدافع عن أصالة وعظمة اللغة العربية، التي لا يجد لغة أقوى جذورًا مادية وروحية وفكرية منها، فهي اللغة البديعة الغنية المقدسة الخالدة، التي تعشقها الشعوب التي استنارت ببيانها الدقيق، وغِناها الزاخر العميق، وهي لغة العلم والأدب والفن والدين والعبادة، ولغة الجمال حيث مواكب من الألفاظ تدل على أنواعه وقيمه ومقولاته، وهي لغة الحب التي أُحصي فيها نحو ستين لفظًا تشفّ عن درجاته وألوانه وخوالجه.. إنها لغة ملء الزمان، ماضيه وحاضره ومستقبله.. إنها أمّ اللغات وأخلد الخالدات، جذورها أرضية وسماوية، ومعانيها وقتيّة وسرمدية..

عبد الكريم اليافي كانت له تجربة واسعة مع تعريب المصطلحات العلمية، ومصطلحات التنميّة الاجتماعية والعلوم المتصلة بها، وتأصيل الثقافة العربية الذاتية ومشكلات الترجمة والتحقيق، وفي كل هذا وذاك كان يرى أن المعرفة لا حدّ لها ولا نهاية للغوص في أعماقها، أو التحليق في آفاقها، ويزيد أن العلوم كلها قد يرفد بعضها بعضًا، ولو كانت متباينة الميادين، مختلفة الموضوعات، ويرى أن المعارف الإنسانية

متضافرة، وجدير بالأديب المثقف أن يلمّ بجملتها إلمامًا ما كي يتاح له النظر السديد، والحكم الرشيد في قضايا الأدب الواسعة والمتباينة..

في أبحاثه الجميلة والدقيقة يرى الدكتور اليافي أن الإنسانية كيان واحد، فقد نظر إلى تطور الإنسانية نظرة عامة تشمل أحقاب الزمن البعيدة، حتى العصر الحاضر، ولا يساوره شك في أنها كيان واحد ينمو ويتقدم، وتسري فيه شريانات التكامل، مشتبكة على الرغم من الخلافات الناشبة والأمراض الفتاكة والحروب المدمّرة، والانحرافات المضللّة، وليست الشعوب التي تحتويها الإنسانية منعزلاً بعضها عن بعض الانعزال كله، ولا منطويًا بعضها على نفسه انطواءً مطبقًا، بل بينها دائمًا نصيب من الاتصال والارتباط ضئيل أو جسيم، ومثل هذا الارتباط والاتصال والميل إلى التقارب والتعارف أشد ما كان البشر شعورًا به اليوم.. ثم إن حصائل العلوم في العصر الحاضر، وثمرات الحضارة الراهنة ليست هي من مبتكرات شعب واحد من الشعوب، أو عرق ممتاز من العروق، وإنما شاركت فيها فئات كثيرة وزمر متعددة، ولئن كان لشعب أن يفتخر بالمعارف الفكرية التي حصل عليها، والإتقان الذي وصل إليه فهو لا شك الشعب العربي، ولا سيما في أحقاب حضارته الإسلامية، ويشهد على ذلك التراث الغني الضخم في العلوم والفنون والآداب والأخلاق والفلسفة، وهو تراث يزّين مفرق الدهر بجواهره المتلألئة الخالدة..

❍ ❍ ❍

في أبحاثه العديدة والشاملة عن التراث العربي الإسلامي، أكَّد الدكتور اليافي دور الحب في حياة الناس، فهو يرى مع الشيخ الرئيس – ابن سينا – سريان قوة العشق والحب في جميع الكائنات، من هويات عامة وبسائط حية وصور نباتية ونفوس حيوانية وأناس (ذكور وإناث)، وينتهي إلى أن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقًا غريزيًّا، وأن الخير المطلق يتجلى لعاشقه، ويبيّن في كتاباته أن المحبة مقترنة

بالمعرفة والإدراك فلا يتصف جماد بالحب مثلاً، والحب هو ميل بالطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقًا..

المحبة في التراث العربي الإسلامي قطبها الإنسان، سواء كان محبًّا للإنسان أو كان محبوبًا من أخيه الإنسان، وسواء كان حبه لله أو كان حب الله له، أو كان الحبّان مشتبكين، فلا بد من أن يلمّ به ذلك الحب، وأن يغمره بنوره المتألق المتعدد الألوان.

وامتد هذا الحب إلى كل ما يتعلق بالإنسان وتراثه وتقاليده وعاداته وحياته، حتى الأزياء التي نظر إليها على أنها ظاهرة من ظواهر الحضارة وهي نوع من أنواع الفنون، وداخلة في آداب الدين والدنيا، وفي حوار الجسد والروح، أو الظاهر والباطن. يقول الدكتور اليافي: «لما كانت الأزياء تتعلق باللباس الذي يظهر به الإنسان بين أشباهه، نشأ في طبيعتها ومنذ القديم حوار يتردد بين تجميل الظاهر وتزيين الجسد من جهة، وبين العناية بالباطن والتنويه بمزايا القلب والروح من جهة ثانية».

والزي برأي الدكتور اليافي يجري بين الناس من الأعلى إلى الأدنى، يقول: «إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعاداته وعوائده» وهو في ذلك يؤكِّد مقولة ابن خلدون في مقدمته: «السبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه».

ولقد كان الأوربيون يقلدون العرب حتى بعد أن جلا العرب عن بعض الأقطار التي نشروا فيها حضارتهم، ويذكر ابن جبير في رحلته الشهيرة، كيف كانت نساء جزيرة صقلية يتشبهن بالعربيات ويتكلمن العربية.. إن الاقتداء بالزي علامة ضعف، وهذا ما يؤكده الدكتور اليافي من دراسته، ويتأثر بالدُّرْجة (الموضة) ويعنو لتيارها الرجال والنساء جميعًا، وإن كانت النساء أكثر تبعًا وانسياقًا بالدارج منها، مع الإشارة إلى أن الأصل في الزي إبراز الجمال والإيحاء بالمحاسن، وينبغي أن تكون مترجمة لمزايا الشخص الحسيّة والمعنوية أو لمزايا الجيل كله وهي في الحقيقة ضرب من التعبير.

○ ○ ○

عبد الكريم اليافي عاش الحياة بكل دقائقها، وتحدث من القلب عن وقائعها، فكانت دراساته وأبحاثه وكتاباته الفلسفية والأدبية والتراثية، أنشودة الكاتب، الأديب الباحث عن مجد الإنسان وحضارة الأمة العربية والإسلامية الحافلة بالعطاء والعلم والأدب والثقافة، وكانت إبداعاته سفرًا في تكوين جديد.. صلاته أزهار، هواه حب، كلماته غذّتها الشمس، وأنهلتها أضرعة السحاب..

كان – رحمه الله – كوكبًا سيّارًا، يلملم الأنوار، ويسبح في الزرقة ليقطف الثمار.. هواه حب أودعه جَني الأفكار.. فراشة حقل، أنشودة غنّى بها البلبل والنهر.. رواها هزار يسكر الوجود متى غنّى.. هو الربيع زهرًا وجنًى..

لقد حمل عبد الكريم اليافي في كتاباته الفلسفية والجمالية، مفتاح البوابة الكبرى، بوابة الجمال، فقد كان يدرك جيدًا أن الذي يملك مفتاحها يستطيع أن يفتح كلّ الأبواب، لذلك استطاع بقوة وجدارة أن يترك في عالم الجمال الفسيح بصمة وعلامة مميزة، كان لها حضورها الكبير في حياتنا الفكرية والفلسفية والثقافية.

لقد نفض اليافي غبار التاريخ الغافي، وأبرز معالمه ومروياته وجمالياته ومكنوناته التراثية، في صور جليّة واضحة، بأسلوب واضح وتحليلات علمية دقيقة.. لقد أبرز بعض وقائع وأحداث التاريخ والتراث العربي بحلّة قشيبة، توضّح الجوانب والملامح بكثير من الضوء.. أحيانًا، والظل أحيانًا أخرى، وتُنير إلى حد ما صورة المجتمع العربي منذ زمن بعيد.

في كتاباته التراثية والأدبية، لم ينظر إلى تراثنا العربي نظرة تقليدية، بل نظرة علمية موضوعية، تتصف بالإنصاف والحيوية، وبذلك حاول أن يكون دارسًا لعادات وتقاليد وفنون، ولشخصيات نبيلة من أبطال التاريخ العربي، فقدم أقاصيص ودراسات ومقالات مختلفة الألوان.. في كل منها حياة ورؤية كاملة.. حافلة بشتى الآراء والعواطف والاجتهادات المعلمية، الواعية لمسيرة العطاء والتجدد في التراث

والفكر العلمي العربي.. لقد وجّه الضوء إلى نواحٍ مظلمة في تاريخنا العربي، وأدخل الشعر والأدب والفكر والفلسفة في سياق متكامل. ليسبغ عليها الشكل العلمي والبحثي الواسع المدى.

ونؤكِّد أن اليافي في كل ما كتب من مؤلَّفات ودراسات ومقالات وخواطر وشعر حريصٌ على أصالة اللغة العربية وصفائها، فقد بلغ حبّه لها حدّ القداسة، وكأنه كان يردد دائمًا مع الشاعر الكبير محمد كامل صالح: «لا يستطيع أحد أن يكتب بلغة لا يحبها، بل لا يعبدها.. والعبادة لغة المعرفة والتقديس، فإن لم تفعل فستجدها بعيدة عنك.. إن لم تفهم لغتك.. إن لم تعبدها، لن تعطيك أسرارها ولن تسطيع الكتابة لها».

عبد الكريم اليافي عاش الحياة، وعاش في الناس، فكان فيضًا من العطاء المتدفق الذي ارتقى به سدّة المجد، وحلّق في سماء روابي الوطن، خمائل جميلة، وأهازيج نحلٍ، وأطياب فلٍ ورياض أقاحٍ، وطلائع صبح ندي..

كلمة الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية

أيها السيدات والسادة

لقد فقدت العربية فارسًا من فرسانها

كان يرتع في سهولها ووديانها مُتنسّمًا عبير معانيها

سابرًا أغوارها للوصول إلى كنوزها

يلتقط لآلئ ألفاظها ويَستهين بالصعاب للوصول إلى مُبتغاه من دقةٍ في التعبير وتحديدٍ لما بين الألفاظ من فروق وفُرَيْقات.

كيف أختصر في دقائقَ قليلةٍ ما عرفته عن الدكتور عبد الكريم اليافي في مجمع اللغة العربية، وما سمعته من طلابه على اختلاف مشاربهم.

فمنهم من عرفه أستاذًا في علم الفيزياء، ومنهم من عرفه أستاذًا في الفلسفة، إذ إنه بذل عطاءه في مجالاتٍ لا يربط بينها سوى عبقريته الفذة.

فقد بدأ عام ١٩٤٧ تدريسَه الجامعي أستاذًا مساعدًا في علم الاجتماع وعلم الجمال، وفلسفة العلوم والتصوّف، واستمر حتى عام ١٩٧٤ في كلية الآداب، وقد شَرُف به كرسي الأستاذية سنة ١٩٦١.

إلا أن الدكتور اليافي لم يلبث أن شبَّ عن طوق كلية الآداب لتُفيد من علمه مراكزُ علميةٌ أخرى؛ إذ انتُدب لتدريس علم الاجتماع والمنطق في كلية الشريعة، وعلمِ الاجتماع وعلمِ النفس في كلية الطب وفي كلية الصيدلة، وتاريخِ العلوم ومنطقها في كلية العلوم، والإحصاءِ الحيوي في كلية التجارة.

ثم عاد رحمه الله إلى منطلقه الأصلي، الذي كان قد حاز فيه إجازة في العلوم (رياضيات، كيمياء، فيزياء) سنة ١٩٤٠ في السوربون في باريس، إذ طُلب إليه أن يحاضر

في أصول تدريس الفيزياء والكيمياء في دار المعلمين العليا.

وتكامل بعدئذ عطاؤه الفكري بإنجاز تلك المؤلفات التي أبرزت أهميةَ علم الاجتماع الحديث من خلال تدريسه في جامعة دمشق، بعد أن انكبّ على صوغ المصطلحات اللازمة للتعبير عن خفايا العلوم الاجتماعية وتشعباتها المرتبطة بالمدارس الأوربية الجديدة كالبنيوية والوظيفية. فنشر كُتبه النفيسة «تمهيد في علم الاجتماع» وكان أضخم بكثير من أن يكون تمهيدًا، و«دراسات اجتماعية ونفسية»، و«المعجم الديموغرافي» و«فصول في المجتمع والنفس» و«معجم مصطلحات التنمية الاجتماعية والعلومِ المتصلة بها»، وجميعُها مؤلفات غميسة أصيلة في موضوعات تلقّى أسُسها خلال دراسته في باريس، وأسبغ عليها مسحةً من عبقريته ليربطها بواقع المجتمع العربي.

لقد كان الدكتور اليافي دائم التفتّح على أمور ثقافية كانت تتقاطع عناصرها في ذلك النصف الثاني من القرن العشرين، وكان هذا يستحثّه لضبط معطياتها في كتب تفتَح أبواب فهم تلك العلوم.

لم يُسعِفني الحظ بأن أكون في عداد تلاميذ الدكتور اليافي في فرع من الفروع الهامة التي تولى تدريسها، لأضيف شهادتي إلى ذلك الإجماع الصادر عن طلابه، في إكبار مخزوناته المعرفية، وتقريظِ قُربه من طلابه؛ كما أن مسارِيَ التدريسيَّ في جامعة دمشق لم يتقاطع في أي مرحلة مع مسار ذلك الأستاذ الكبير.

إلا أنني واجهته أول مرة حين كلّفني أستاذي الكبير الدكتور حسني سبح رحمه الله رئيسُ المجمع حينذاك، أن أزور الدكتور اليافي برفقة زميلي الدكتور هيثم الخياط، لنحاول إقناعَه بقبول ترشيحه إلى عضوية مجمع اللغة العربية. وقد بدا لنا لدى زيارته في داره ما يتميز به من التواضع ودماثة الخلق، وقد أوضح لنا أنّ ممانعتَه في ذلك تدور حول تخوُّفه من أن يكون عملُه المجمعي معطلاً لمنطلقاته في مجالات العلوم المختلفة،

وقد كان عندها في خضم إنتاج علمي غزير.

وقد نجحنا في مهمتنا وتم انتخابه عضوًا في مجمع دمشق عام ١٩٧٦، وتزيّن به مَفرِق المجمع. ثم عرفته في مجمعنا باحثًا لا يعرف الكلال، يحمل فكرًا منفتحًا على مسارات العلوم، وكاتبًا أغنى عددًا كبيرًا من الموضوعات ببحوثه وتحقيقاته، وإنسانًا مرهف الحس يغلب عليه تواضعٌ عجيب، وخُلُق رفيعُ القيم يجعله ليّن العريكة في المناقشات التي تدور بين الأعضاء، فهو لا يُصرّ على رأيه ولكنّه لا يتراجع عنه.

وقد كان الدكتور اليافي عماد لجنة ألفاظ الحضارة التي نسعى فيها إلى إيجاد مقابلات عربية لتلك الألفاظ الأجنبية التي طرحتها الحداثة على عالمنا الشرقي. ولاشك بأن معرفتَه الجيدةَ للفرنسية والإنكليزية كانت تدخله إلى صلب معنى اللفظ المطروح، فيسهل عليه عندها اغتراف اللفظة العربية المناسبة من ذاكرته، التي ملأتها سنين من المطالعة في حقول واسعة من تراثنا، حافلة بالألفاظ المتقاربة المتمايزة.

ومن الأمثلة الساطعة على هذا المخزون اللغوي مقالةٌ نشرها في مجلة المجمع سنة ١٩٨٢ بعنوان «الحمدُ والمدحُ والشكرُ والثناءُ والرضا وفروقُها في اللغة والتراث»[1].

وكان يجلس صامتًا يُصغي إلى مناقشة زملائه أعضاء اللجنة لمصطلح من المصطلحات، وإذا به يتناول معجمه المفضّل، وهو متن اللغة، ليستقصي جذرًا من جذور اللغة تبادرَ إلى ذهنه، ثم يطلع علينا بحروف جديدة تنتظم في مصطلح يتطابق مع المعنى المطلوب. ومن الحلول الجميلة التي ابتدعها أنه حين كنا نناقش تسميةً عربيةً للإنترنت، عاد في ذهنه إلى تسمية دارجة إذ ذاك لعالم الحواسيب المترابطة، وهي الشبكة العنكبوتية، فاقترح أن الإنترنت هو الشابكة لعناصر الشبكة العنكبوتية، وقد أقر المجمع تلك التسمية بعد أن كان قد أقر الحاسوب والناسوخ.

فهل نبوغُ الدكتور اليافي في مختلف مجالات اللغة العربية وعلومها مرتبطٌ بنشأته

(١) مجلة | مع ج٤ مجلد ٥٨.

في حمص، حيث دخل مدارسها الرسمية، وكان يلازم الشيوخ القائمين على تدريس اللغة والفقه والتفسير والبلاغة في المساجد؟

أم أن ذلك نتيجةُ جهدٍ شخصي لم تعطّله السنوات السبع التي قضاها في فرنسا طيلة الحرب العالمية الثانية؟

لاشك أن الدكتور اليافي كان يتقن عددًا من اللغات إلى جانب ما نعرفه من إتقانه للغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وهذا ما يثبت وجود ملكة لغوية فذّة لديه.

فهل اهتمامه مثلاً بالشعراء الفرس ينمّ على معرفة جيدة للغتهم؟

لقد نشر بحثًا بعنوان «شيراز وابنها سعدي»[٢]، في مجلة التراث العربي التي استمر رئيسًا لتحريرها سنواتٍ عديدةً، كما نشر بحثًا عن حافظ الشيرازي[٣] يتساءل فيه عن أسرار الإبداع في شاعريته، فهل درس ذلك مترجمًا أم بلغته الأصلية ؟

وقد امتد شغفُه بالشعر إلى محمد إقبال[٤]، وإلى جدلية أبي تمام[٥]، وأصدر كتابًا بعنوان «شموع وقناديل في الشعر العربي»[٦]، يتلمّس فيه أرقّ المعاني والرموز. ويروي طلابه أنه كان يبدأ محاضرته أو يختمها ببضعة أبيات من الشعر.

ولا شك بأن تكوينه الفلسفي بقي مهيمنًا على اهتماماته، إذ إنه نشر عدة مقالات في موضوعات فلسفية، منها «قصة إبراهيم الخليل بين ابن عربي والفيلسوف الألماني كيركغارد»[٧]، ومنها «أجوبة الشيخ الرئيس ابن سينا عن مسائل أبي الريحان

---

(٢) التراث العربي تموز ١٩٨٥.

(٣) التراث العربي تموز ١٩٨٩.

(٤) التراث العربي نيسان ١٩٨٦.

(٥) طباعة بغداد ١٩٨٠.

(٦) مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤.

(٧) التراث العربي العدد الرابع ١٩٨١.

البيروني»[٨]، و«سيرة الإمام أبي حامد الغزالي»[٩]، ومقالةٌ عن أبي نصر الفارابي[١٠].

لقد كان الدكتور اليافي أولَ من درّس علم الجمال في جامعتنا، إذ كان يحمل شهادة من السوربون بعنوان فلسفة الجمال وعلم الفن، ولذا ألّف كتابه «دراسات فنية في الأدب العربي»، واتسع في نظرته إلى تحرّي الجمال في نصوص من التراث العربي، فنشر بحثًا بعنوان «فن الحدائق»[١١].

وهناك ناحية لا يعرفها عن الدكتور اليافي سوى قلةٍ من أصدقائه وطلابه، وهي ميوله الصوفية. فقد كانت أطروحته لشهادة الدكتوراه دراسةً نفسية وجمالية لشعر ابن الفارض. وليست صوفيةُ اليافي تلك التي انفردت بها بعض الحركات الصوفية المعروفة، كالنقشبندية والشاذلّية والسعدية، بل إنه كان يرتوي من منابع الصوفية الأولى، وقد درّس نصوصًا لروادها كالحلاج والمحاسبي والجنيد، كما أنه درّس كتاب «فصوص الحِكَم» لابن عربي.

ولا ننسَ في خضم استعراضنا لتلك الآثار الجليلة التي تشهد للدكتور اليافي بعبقريةٍ فذّةٍ شاملةٍ لنواحٍ ثقافيةٍ هامة، أنّ له مساهماتٍ كبيرةً في موضوعات علمية متفرقة. فقد ألَّف كتابًا يتناول الفيزياء الحديثة والفلسفة عام ١٩٥١، وهو يعود فيه إلى المنطلقات الفلسفية التي تبقى قابعةً وراء كلِّ محاولة لفهم نظام الخليقة.

وأتبعه عام ١٩٨٧ بمقالة عنوانها «الحس المشترك والتراث العربي ونظرية النسبيّة»[١٢]. كما أن له كتبًا هامة ألفها منذ مطلع عمله التدريسي: في «تقدم العلم»

---

(٨) التراث العربي العدد ٥ ، ٦ ١٩٨١.

(٩) التراث العربي كانون الثاني ١٩٨٦.

(١٠) التراث العربي كانون الثاني ١٩٨٨.

(١١) التراث العربي تشرين الأول ١٩٨٩، كانون الثاني ١٩٩٠.

(١٢) التراث العربي تشرين الأول ١٩٨٧.

١٩٦٤، وفي «علم السكان» ١٩٥٩ وغيرَها.

ومن مقالاته العلمية أيضًا «علماء العقاقير النباتية في الحضارة العربية الإسلامية»[١٣]، ومقالةٌ فقهية علمية عنوانها «ضبط النسل في رأي الغزالي» قدمها في مهرجان الغزالي عام ١٩٦١.

وله بحوث أصيلة في التاريخ منها مقالة بعنوان «ابن خلدون ومنهجه العلمي الحديث»[١٤]، يتطرق فيه إلى مقارنة جريئة بين منهج العالم العربي ومنهج المؤرخ الفرنسي المعاصر فرنان بروديل، الذي أطلق نظرة جديدة على كتابة التاريخ البشري موضحًا ارتباطاته بالمؤثرات المناخية والمشكلات البيئية.

وترجم كتاب «العلم والنظرة الإنسانية»[١٥]، لمؤلفه الفيلسوف الألماني شرودنكر الحائز شهادةَ نوبل، وهو كتاب فلسفي يتطرق إلى تعريف الحياة وعلاقتها بالطبيعة.

إن هذه النظرةَ الخاطفةَ إلى إنتاج الدكتور عبد الكريم اليافي لا يمكن أن تعطيَ لنا ما يتجاوز فكرة سطحية عن تلك الأعماق التي وصلت إليها فطنتُه وأنضجتها ثقافته الواسعة.

رجل استوعب الأسس العلمية والفلسفية للحضارة الحديثة وتمثّلها ليقدمها ناضجة واضحة لطلابه.

إنه صاحبُ عقل فريد قادر على الانتقال من دقة العلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الإحصاءات الحيوية، إلى أعماق الفلسفة الحديثة، وإلى الترنم بالشطحات الصوفية للحلاج وابن الفارض.

لقد اكتسبت جميع مؤلفاته طابعًا خاصًّا من الدقة والأناة في توضيح الأمور،

---

(١٣) التراث العربي ١٩٨٥.

(١٤) التراث العربي نيسان ١٩٩٢.

(١٥) مطابع دمشق ١٩٦٤.

وتميزت بانبساط ألوانها على طيف واسع يكاد يجمع معظم الاهتمامات الإنسانية في العصر الحديث، مع نظرة فاحصة إلى ما تمثّلهُ الحضارة العربية الإسلامية في مجالات العلم. وقد أطلق عنوان «سمات العلم والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية» على إحدى مقالاته[١٦].

لقد كان الدكتور اليافي عاشقًا للغة العربية يصول ويجول بين رياضِ جذورها واشتقاقاتها وتراكيبها، يُسبغ عليها مكانةً فريدة بين اللغات لما وجده فيها من ثراء حقيقي في المفردات، وسلاسة في الأسلوب، ودقة في التعبير. وكل ذلك مبني على معرفة كاملة للغات أوربية أخرى، لم يقبل أن يُحلّها موقعًا تكون فيه نظيرةً للعربية في طاقاتها وإمكاناتها. وهو القائل: «إن اللغة العربية سجل الحضارة التالدة ومطيّة الحضارة الطارفة».

فهل هذا كله يجعل من الدكتور اليافي أديبًا يصبّ أدبه في علوم شتى أم أنه رجل علم وهبه الله مقدرةً علمية نادرة تُتيح له تفهُّم العلوم المختلفة وإعطاءها قالبًا أدبيًّا عربيًّا يقرّبها إلى أذهان طلابه ؟

فلو جُمعت انطباعات كل فرد من الذين عرفوه، أو عاصروه، أو اطلعوا على إنتاجه العلمي، لبرز منها تمثال حي لعبقرية علمية وأدبية في آن معًا.

فهو العالم الذي دَمَغ الدراسات العلمية بدمغَته، وقدم لمواطنيه علومًا لم تكن معروفةً قبله، وهيأ لها المصطلحات التي تحتاج إليها ليمكن تدريسها باللغة العربية.

وهو مؤسس علم السكان في نطاق العلوم الاجتماعية، وقد وصلت شهرته إلى المجال العالمي فكان خبيرًا لدى الأمم المتحدة في هذا المضمار.

وهو أول من أسس لتدريس علم الجمال في جامعتنا.

وإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما نعرفه عن شغفه بالشعر، الذي أولاه نظرة تقييمية فنية

---

(١٦) التراث العربي تشرين الأول ١٩٨٨.

تتحرى عناصر الإبداع ومقوماته، عُدْنا عندئذ إلى تأكيد الطابع الأدبي في شخصيته.

لقد تلاقت في فكر اليافي مسارات عديدة وتَغصُّنات أنبتتها اللغة العربية، تفرّعت وتفتّحت عنها أزهار مختلفة الألوان أعقبت ثمراتٍ ناضجةً في علوم تراثية وعصرية. فليست اللغة العربية لغةَ شعر وبيان فحسب، وليس الاهتمام بها يعني الغوْورَ في دقائقِ صرفها ونحوها.

فاللغة العربية جوهرة مصقولة يَشِعُّ النور من وُجيهاتها فتستنير به العلوم والآداب ويسمو به الشعر إلى آفاق لا متناهية.

أيها السيدات والسادة

عذرًا إذا كنت لم أستطع أن أنقل إليكم سوى غيضٍ من فيضِ عبقرية هذا المفكر المبدع، الذي أدهشنا بمساره العديد المسالك، الكثير الشعاب، مسارٍ يختبئ في كل منعطف منه ما يستدعي إعجابنا من إنجازات وخبرات.

رحم الله فقيدنا الدكتور عبد الكريم اليافي، فإنه عالم يضاهي بسعة معارفه أولئك الذين اشتهروا بمداعبة أوتار الفنونِ وهم جادّون في متابعة العلوم، فهو عالم عصري له جذور تراثية عميقة.

لقد كان الدكتور اليافي هرمًا من المعرفة تُتوّج قمتَه روحٌ شاعرية حساسة مرهفة.

فاسمحوا لي في ختام مسعايَ إلى إبراز مِيْزات ومآثر فقيدنا أن أقول فيه ما قيل في أبي القاسم الجنيد ذلك الصوفي الكبير:

«ما رأت عيناي مثلَه، الكتَبَة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه».

د. مروان المحاسني - أ. جورج صدقني - د. ليلى الصباغ - د. واثق شهيد - د. شاكر الفحام - د. إحسان النص - د. محمود السيد - أ. سليمان العيسى

د. موفق دعبول - د. عادل العوا - د. زهير البابا - د. عبد الرزاق قدورة - د. عبد الكريم اليافي - د. مكي الحسني الجزائري - د. عبد الحليم سويدان

مع زملائه أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق

أمام المدخل الشمالي (٢٠٠٢)

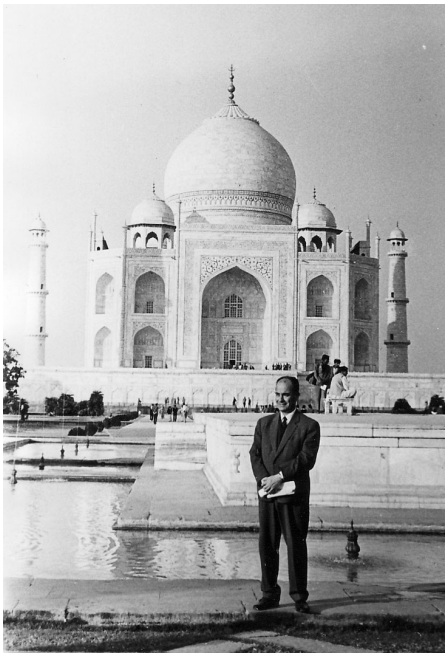

صور تذكارية في إيطاليا والهند

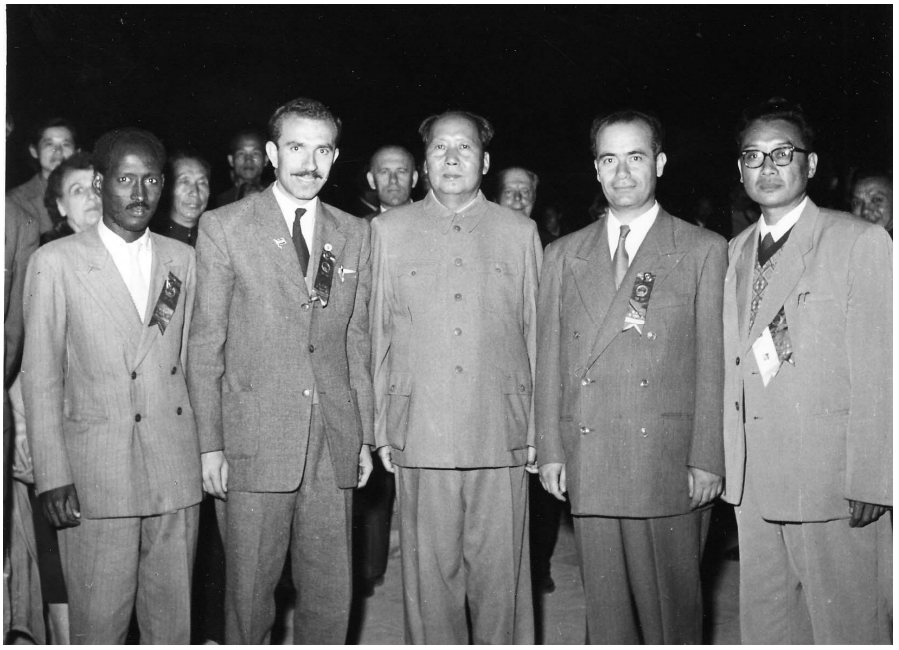

مع الزعيم الصيني ماو تسي تونغ أثناء زيارة للصين الشعبية

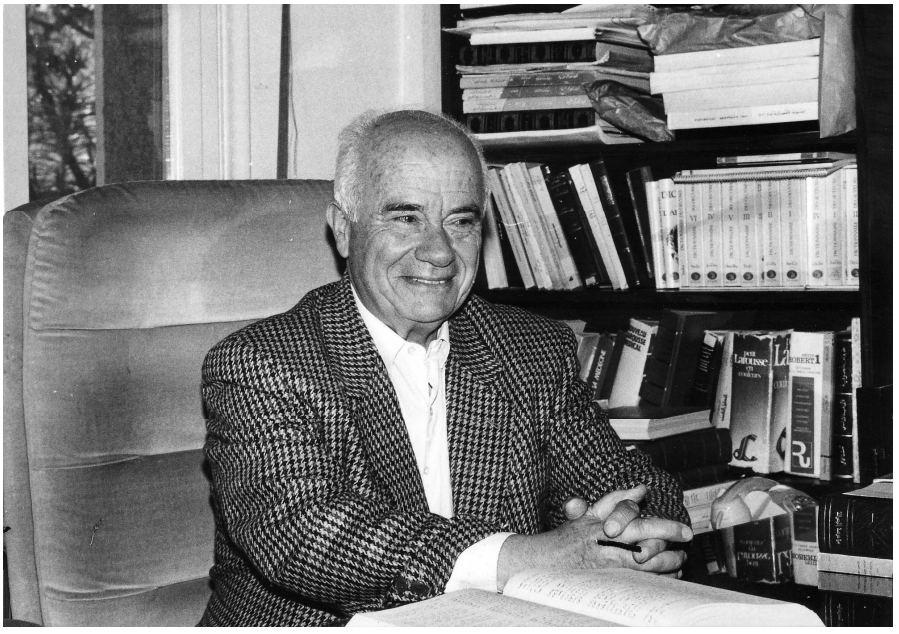

بمكتبه في المنزل

العماد أول مصطفى طلاس يكرم الدكتور عبد الكريم اليافي (في التسعينيات)

الدكتورة نجوى قصاب حسن تقلِّد الدكتور اليافي وسام الاستحقاق السوري (٢٠٠٢)

كلمة أصدقاء الفقيد

ألقاها الدكتور محمود السيد

نائب رئيس المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

السيّد وزير الثقافة راعي هذا الحفل التأبيني السيّد الدكتور رياض نعسان آغا المحترم.

آل العلامة الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه الله.

أيها الحفل الكريم:أسعد الله أوقاتكم.

حيٌّ بذكراك لا موتٌ ولا عـدمُ يا من تخلدك الأخلاقُ والكتبُ

أجل أيتها الأخوات الفضليات والإخوة الأفاضل، إنَّ من تُخلّده سيرته العطرة ومناقبه الرفيعة وآثاره القيّمة ومواهبه المتعددة أدبًا وعلمًا، يبقى حيًّا في نفوس الأجيال، وصدق من قال:

موتُ النقيِّ حياةٌ لا نفـادَ لهـا قد مات قومٌ وهم في الناس أحيـاءُ

ولكم نجد في سيرة فقيدنا الغالي العلامة الدكتور عبد الكريم اليافي دراسةً وتأليفًا وممارسةً في الوسط الأكاديمي الجامعي والمجمعي من دروس وعبر تتخذ منها الأجيال مثالاً يُحتذى في الجدية، وقوة الإرادة، والحرص على التفوق والتميز، والمواطنة الحقيقية، والانتماء القومي، والنَّزعة الإنسانية، والإيمان برسالة أمته الحضارية، وتفاؤله بمستقبلها المشرق.

لقد عرفتُ الصديق الكبير الدكتور اليافي – رحمه الله – ، فعرفت فيه الوفاء والود الصافي والمحبة النقية والصراحة قولاً وفعلاً في الوقت الذي نجد فيه نفرًا نَأَوْا بسلوكاتهم عن هذه السمات النبيلة والقيم الرفيعة، فإذا هم يأتون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه!

وفي أجواء كهذه كم نفتقدك يا أبا محمد، ونفتقد صدقَك ومودتك وظاهرك وباطنك وصفاء سريرتك وطهر مسعاك وشموخ رؤاك!

لقد كان الوفاء جبلة لفقيدنا الغالي في حياته كلِّها، ولا غرو في ذلك، فتلك هي سجيته، وهو القائل:

إن الوفـاء سـجية لا يزدهـي بجمالهـــا إلا كـــريم العنـــصر

وهو الداعي إلى معاشرة أهل الوفاء:

مـن أرادَ الـدّنيا صـفًا ووفـاءً فليعـاشر أهـل الوفـا والتـصافي

لقد جسّد وفاءه سلوكًا وممارسةً مع أسرته الصغيرة، قرينته الفاضلة وأبنائه البررة، وجسّد وفاءه لمدينته التي نشأ فيها وترعرع، ولوطنه وأمته وللإنسانية كلها.

جسّد وفاءه لقرينته الفاضلة سموًّا في قوله:

إذا فتياتُ الحيِّ أغـوينَ صـاحبي وأصـبح منقـادًا لهـا أيَّ منقـادِ

فأشهى غواني الحيّ عنديَ زوجتي وأحلى نـساء الأرض أمٌ لأولادي

وجسّده عاطفةً متأججةً في ندائه لابنه الحبيب محمد:

محمـــدٌ يـــا حبيبـــي أنـــت الحبيـــبُ الوحيـــدُ

القلـــب بيتـــك فيـــه مـــا تـــشتهي ومزيـــد

وفي تبيانه لمحاسن ابنته الرفيعة التهذيب شادن:

محاسنُ شادن تسبي القلوبا أكادُ من المحبةِ أن أذوبا
ذكاءٌ خارقٌ، وصفاءُ طبعٍ وقلبٌ طافحٌ عطفًا وطيبا

وفي محبته لمدينة حمص التي وُلد فيها، وكانت طفولته ونشأته الأولى في ربوعها:

يا حمصُ جسمي من ترابك فاعلمي أني على الحبِّ القديم مقيمُ
روحي كذلك من سمائك نفحةٌ حلَّت بهذا الجسم وهو سَقيمُ
إني أدين بلهجتي وبمهجتي وسذاجتي لك والعطاءُ عظيمُ
أمَّ الحجار السُّود سرُّك أبيضٌ وكذاك قلبي أبيضٌ وسليمُ

وما أسمى وفاءَك ياأبا محمد لعروبتك وانتمائك العربي، وأنت القائل:

ومحبتي هي للعروبة كلها والعلمُ والإسلام كل شعائري

كما يقول:

أنا سوريٌّ ولكن فؤادي عربيُّ
وهوى قلبي تراثٌ كالدراري يعربيُّ
لم أجدْ مثل بلادي إنها المأوى الزكيُّ
أينما كنت فإني عربيٌّ عربيُّ

أما محبتك للغتك العربية وعشقك لها فقد ملأ عليك جوارحك وعالمك في حلّك وترحالك، وعلى الرغم من معرفة أبي محمد عدةَ لغات أجنبية «الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والروسية» كانت اللغة العربية هي حبيبته التي ملكت عليه فؤاده:

كــم مــن لغــاتٍ قــد عرفــتُ وإنما لغة العروبة فوق كل لسانِ
ملكت عليَّ جـوانحي فأطعتهـا حبًّا فعـادت وهـي طـوعُ بنـاني

ويناديها قائلاً:
أيـا لغــة القــرآن أنــت حياتنــا ومرآتنــا فــيما نقــولُ ونفعــلُ

ويبيّن أن نسبة الضاد عنده أشرف النسب:
إذا تقاربت الأقطـارُ أو بعـدت فنسبة الضاد عندي أشرف النسبِ
لم يبق شيء بأيـدينا سـوى لغـةٍ نصونها بسوادِ القلـب والهُـدُبِ

ويعدد مآثر لغته قائلاً:
هي نسغُ وحدتنا ونـورُ حياتنـا وســماؤنا والأرضُ و الأركــانُ

ولم يعبِّر عن محبته للغته شعرًا فقط، وإنما عبَّر عنها نثرًا فيقول: «وكما يحلو شعاع الشمس حين يتلألأ في الضحى والأصيل على لازورد السماء الصافي، كذلك يتلألأ اللفظ العربي الشريف في خاطري وفي سمعي وبصري، فأنعَمُ بطلاوته، وأقتاتُ من حلاوته، وأرشُف من معين رُوائه، وأحلم في آفاق جرسه».

وكان رحمه الله معجبًا بما كتبه اللغوي أحمد فارس الشدياق عن مكانة اللغة العربية، إذ يقول الشدياق: «ومامثَلُ العربية إلا مثَلُ دوحةٍ ذات أفنان، في كل فننٍ منها أفنان، مايزال ظلُّها ظليلاً ضافيًا، وموردها عذبًا صافيًا، بيدَ أن العرب والحق أقول لم يقدروها حقَّ قدرها، ولا عرفوا أنها الفاضلة وغيرها المفضول».

ويرى اليافي رحمه الله أن في خدمة اللغة العربية خدمةً للقومية العربية وخدمة

في الوقت نفسه للحضارة الإنسانية، وكل تهاونٍ في شأنها معناه التفريطُ في حق أعلى روابط الوطن العربي، والتقاعس في جنب أغلى كنوز التراث الإنساني، لذلك كله لَزِم أن نحرص عليها حِرصنا على كياننا، وأن نستمسك بها استمساكنا بحقيقتنا، وكل جهد يصرف في هذا الشأن لن يضيع عبثًا في الميدان القومي ولا في الميدان الإنساني.

ولقد سألته مرّة: هل سألْتكَ شادن عن المبتدأ والخبر، فنظر إليَّ باسمًا ومستغربًا هذا السؤال، فقلت له: قرأت منذ يومين قول الشاعر:

وشادن تسألني ما المبتدأ والخبر؟ مَثِّلْهما لي مسرعًا فقلتُ أنتِ قمرُ

فضحك قائلاً: إن ابنتي شادن متمكنة من لغتها العربية، وضحكنا معًا وقلت له: كيف لا تكون متمكنة وهي ابنة أبيها العلاّمة اليافي.

ولكم كان أبو محمد معتزًا بتراث أمته، وهو القائل:

منه إشراقنا، ولولا الجذور الخضرُ ما هزت الصبا أغصانا

إلا أنه كان منفتحًا على تراث الشعوب الأخرى في الوقت نفسه:

أهوى تراث الشعوب طُرًّا كم فيه من قيمةٍ سنيّة
فكلُّ شعبٍ له مزايا أفاد من نورها البرية

ويرى أن:

أحلى علاقات الشعوب صداقةٌ تُبنى على الحبِّ الوثيقِ المسكرِ

ولكم كان ظمآن إلى أن يسود الوفا ونبله بين الأفراد والشعوب:

إني ظمئـتُ إلى الوفـاءِ ونبلـه وإلى إخـــاءٍ دائـــمٍ ميمـــون
وإلى علاقات الـشعوبِ رضـيةً وإلى ســـلام عـــادلٍ وأمـــينِ

أيتها الأخوات، أيها الإخوة، أيها الحفل الكريم:

تلك هي الصورة عن بعض سمات شخصية الصديق الغالي الدكتور اليافي، ولقد أعجبتُ أيما إعجاب بهذه الشخصية الفذة: أُعجبتُ بتفوقه وثقافته الموسوعية وبمناقبه الرفيعة وإنسانيته ورهافة حسه، أُعجبت بذكائه الحاد وذاكرته المتميزة، وإخلاصه في عمله وتفانيه في أدائه، كما أعجبت برصانة رأيه ورزانته، وبتبتله على محراب الدراسة الجادة في جامعة السوربون بباريس:

لـيلايَ كانـت كـلَّ درس ممتـع بمـــدرَّجٍ أو قاعـــةٍ أو مخـــبر
أمضي إلى «السوربون» في غـدواتها وأعاود الجلسات طيَّ الأعـصر

ولقد توطدت صداقتي به في العقود الثلاثة الأخيرة، إذ إننا عملنا معًا في المجلس العلمي للاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاية الصم وفي مؤتمرات الاتحاد وندواته، وفي اجتماعات المركز العربي لبحوث التعليم العالي، واشتركنا معًا في مناقشات رسائل علميةٍ في كلية الآداب بجامعة دمشق، ثم عملنا معًا في المجلس العلمي للآثار في وزارة الثقافة يوم أن كنتُ وزيرًا لها.

ثمَّ تعززت هذه الصداقة في رحاب مجمع اللغة العربية، حيث كان لي شرف الجلوس إلى جواره في اجتماعات مجلس المجمع، وطالما استأنست بآرائه الرزينة، وطالما وجدت المتعة والفائدة في تعقيباته على بعض الآراء التي كانت تطرح، وبعض هذه التعقيبات كان جهارًا، وبعضها الآخر كان همسًا في الأذن!

ما اتصلت به في يوم من الأيام مستفسرًا عن موضوع أو كلمة، إلا كانت إجابته

مباشرة، ولا عجب في ذلك فمخزونه الثقافي يتسم بالغنى والتنوع، يزين ذلك كله ذاكرة متقدة وسرعة بديهة، وتواضع قلَّ نظيره.

والحقّ أقول، كان اليافي رحمه الله آخر العمالقة الموسوعيين في زماننا الحالي، وما رأيت صفة الموسوعية تنطبق على عالم في أيامنا هذه كما تنطبق على الأستاذ الدكتور اليافي، ذلك لأن ثقافته هي ثقافة موسوعية بكل جدارة، فهو في دراسته الجامعية الأولى حاز شهادة الإجازة في العلوم «رف ك» وكان الأول في نيلها سنة ١٩٤٠، كما نال شهادة الإجازة في الآداب في السنة التي تليها. وفي دراساته العليا حاز خمس شهادات في تخصصات مختلفة «علم النفس العام، فلسفة الجمال وعلم الفن، المنطق والفلسفة العامة، تاريخ العلوم وفلسفتها، علم الاجتماع والأخلاق».

ولا أدل على موسوعيته من تدريسه في سبع كليات جامعية هي « الآداب، العلوم، الصيدلة، الطب، التربية، التجارة، الشريعة» ومن تدريسه مقررات في ميادين المعرفة المختلفة «علم الاجتماع، علم الجمال، فلسفة العلوم، المنطق، تاريخ العلوم، أصول تدريس الفيزياء والكيمياء، علم النفس، الإحصاء الحيوي».

ولا أدل على موسوعيته من تآليفه الحسان في ميادين متنوعة «تمهيد في علم الاجتماع، في علم السكان، الفيزياء الحديثة والفلسفة، دراسات اجتماعية ونفسية، دراسات فنية في الأدب العربي، تقدم العلم، العلم والنَّزعة الإنسانية....إلخ».

وهكذا تدركون أيها السادة مدى الخسارة الكبيرة التي مُنينا بها بفقدان هذه الشخصية الموسوعية المتعددة الجوانب معرفة وقيمًا وسلوكًا وأداءً، هذه الشخصية المثال والقدوة.

أيها الحفل الكريم:

لابد لي من الإشارة إلى باقة من الحكم التي كنا نلقفها من أستاذنا اليافي رحمه الله ومنها:

وقيمة المرء ما يسديه من عملٍ ما المرءُ في هذه الدنيا سوى خبرِ

فلا تحتفل بالعيشِ عمرَك والتمس سموَّ المزايا فهي أحرى وأقمنُ
والحبُّ أجملُ ما غنّى به بشرٌ يحيا به الدوحُ والأزهارُ والثمرُ

«إن الطبيعة تبدو صماء لاتسمع، وعمياء لا تبصر، وبكماء لا تنطق، ولكن الإنسان هو سَمْعُها الذي به تسمع، وبصرُها الذي به تبصر، ولسانها الذي به تنطق، إنه هو الذي يمنحها بالعلم والفن سمعًا وعينين ولسانًا وشفتين».

ولقد رويت له حكمة هندية أُعجب بها، وطلب إليَّ كتابتها له، والحكمة تقول: «العقلاء هم الذين يرون الأحداث قبل وقوعها، والحمقى هم الذين لا يرون الأحداث إلا ساعة وقوعها، والمجانين هم الذين لا يرون الأحداث حتى بعد وقوعها».

كما سجلت له حكمة تضمنها كتاب «داغستان بلدي» لرسول حمزاتوف، وهذه الحكمة هي: «لا، لم يكن شجاعًا، ولاحكيمًا، لكن انحنِ له فقد كان إنسانًا. افقد كل ماتملك، لكن لا تبع الإنسان فيك ولاتفقده».

ولقد عقب على هذه الحكم قائلاً: الحكمة هي أصفى رحيق يقطره عقل الإنسان.

وثمة عقول كبيرة بمَنْزلة المصابيح في تاريخ البشرية، وما أحوجنا إلى هذه العقول الكبيرة في عالمنا!

وكان يرى أن الحوار في قضايا العلم والفلسفة والفكر إنما هو من مزايا الحضارة الإنسانية الخيّرة النيّرة الفاضلة، ذلك أنّه في الحوار تثارُ أمورٌ فكريّة، وتثارُ مشكلاتٌ علميّة، وتتسق المعارف، وتتقدّم تقدّمًا وطيدًا، وتتجلّى المواهب.

ولقد تخيّر ماجرى من حوار بين عالمين فيلسوفين من أشهر علماء الإنسانية ومفكريها الأعلام، ومن أكثرهم مناقب وأعمالاً تركت آثارًا بالغةً في تاريخ العلم والفلسفة، ألا وهما أبو الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا، وكيف طرح أبو الريحان سؤالاتٍ علمية وفكرية على الشيخ الرئيس وهما في مقتبل العمر وريعان

الشباب، وما أجاب عنها ابن سينا.

وإن النضال في عصرنا الحاضر إنما هو نضالٌ في ميدان الفكر وسباقٌ في حلبة الثقافة ومباراةٌ في مضمار العلم، فالعلم نورُ المجتمعات وهاديها وقائد الأمم والشعوب في سبيل الحضارة الإنسانية ودليلها الأمين.

وما أنبلها من صرخةٍ انطلقت من أعماق فقيدنا الغالي تجاه ما يجري في عالمنا المعاصر، وفي ظلال عولمةٍ متوحشةٍ يسحق فيها الإنسان إذ يقول:

تبًّا لقومٍ يدَّعون حضارةً ... ونفوسهم في اللؤم كالذؤبان

ليس الحضارةُ غلةٌ مسروقة ... من أذرع العمال والأجفان

إنَّ الحضارةَ رفعةٌ ومكارمٌ ... وسموٌّ أخلاقٍ وصدقُ بيانِ

ماضرَّ لو جعلوا السّلام علاقةً ... بين الشّعوب تدانُ كالأديان

تلك الصرخة المنبثقة من ضمير إنسانٍ كبير فُطر على المحبَّة والسلام في حياته كلِّها وهو القائل: «على أني في حياتي فطرت على محبة الحياة ومحاسن الكون وجمال الطبيعة، وعلى الأنس بمن عرفت من النّاس ولاسيما أصدقائي والمقربين مني، وما أحلى السعادة التي تتفجر في قلب الإنسان حين يشعر أنه يعيش في جو ملؤه المحبة والحنان والتعاون والتفاؤل! وعلى الرغم من قتامة الأجواء، وضخامة التحديات التي تواجهها أمتنا فلقد كان صديقنا الكبير متفائلاً بعودة مجدها الغابر إذ يقول:

سنجهَدُ وسع النفس في خدمة العلا ... إلى أن يعود العيش فنيانَ أروعا

عصورٌ تقضَّتْ كنَّا بالمجدِ حُفَّلاً ... وسوف يؤول المجد أبهى وأبدعا

رحم الله العلامة الكبير الدكتور اليافي الرحمة الواسعة، سعة ما قدّمه لأمته من أفانين العطاء الفكري، والتي كان قد منحه بسببها السيد الرئيس بشار الأسد وسام

الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تقديرًا لعلمه وثقافته وإكبارًا لمناقبه وإخلاصه لوطنه وأمته.

وتعازينا القلبية الحارة لأسرته الأخت الفاضلة قرينته الكريمة السيدة أم محمد وابنه المحترم الدكتور محمد، وابنته الرفيعة التهذيب الدكتورة شادن، وإلى آل اليافي الكرام وتلامذته ومحبيه وأصدقائه وإلى الناس كافة لأنه كان الإنسان الإنسان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة طلاّب الفقيد

ألقاها الأستاذ جورج صدقني

عضو مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

لقد آثرت أن يكون حديثي عن علاَّمتنا الموسوعي الكبير الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه الله حديثًا يتناول نظرته إلى العلم، ولا سيما أن العلم ظل شاغله الشاغل منذ شبابه المبكِّر حتى وافاه الأجل المحتوم منذ ما يقارب أربعين يومًا، وأن أتحدث عنه معلِّمًا همُّه أن ينقل شيئًا من علمه الغزير إلى تلامذته ومريديه، فلعلّ هذا يلقي الضوء على جانب من جوانب الإنسان فيه، الإنسان الذي يعطي بغير حساب ويهب من قلبه الكثير الكثير، ولا يكاد يأخذ من الناس إلا القليل، اللهم إلا شعورًا ذاتيًّا بالرضا وهو عظيم.

أما موقفه من العلم فمردّه أنه كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الإنسان ما أُوتي من العلم إلا القليل: من هنا كان نهمُهُ في طلب العلم نهمًا لا يشبع ولا يهدأ، ومن هنا كان هذا الطالب العربي الغريب في باريس، هذا الطالب الذي لا يكاد يسدُّ رمقه، نشيطًا يتنقل من قاعة إلى أخرى في السوربون طلبًا للعلم، وكلّما تفوَّق في علمٍ أو نال شهادة علمية فيه، أدرك على الفور أن علمه ناقص، لأنه لا يحيط بكل شيء، فيشرع في حضور محاضرات أساتذة آخرين في علوم أخرى وهكذا دواليك!

لقد كان هذا دأبه طول حياته، فلقد كان – على إدراكه أنه لا يمكن أن يحيط بكل شيء علمًا – لا ينفكّ يأكله الفضول إلى معرفة المزيد، وكان – رحمه الله – كلما سمع إطراء لعلمه وسعة اطلاعه، أجاب جوابه المألوف: «أستغفر الله!»

لقد عاد أستاذنا اليافي من السوربون إلى الجامعة السورية حاملاً شهادات كثيرة في

علوم متباينة، وبدأ يطلق في رحاب جامعتنا الناشئة علومًا جديدة وطريفة لم يسمع بها أحد من قبل: فمن علم السكان، إلى علم الاجتماع، إلى علم الجمال إلى غير ذلك من العلوم... وبهذه المناسبة فإني أشهد على أن أول مرة سمعت فيها باللسانيات كان الفضل فيها لأستاذنا اليافي ولهذا قصة تُروى:

كان ذلك في العام ١٩٥١، حين كان يلقي علينا محاضرات في علم الاجتماع، وكان كلّفني أن ألخِّص كتابًا للدكتور علي عبد الواحد وافي عنوانه (المسؤولية والمجتمع). حملت إليه التلخيص في الموعد المحدد، وبي حماسة شديدة لعرض الموضوع أمامه، لكنه فاجأني بسؤال: أما من ملاحظة لديك على الكتاب؟ قلت: بلى! الهمزة في كلمة المسؤولية في العنوان موضوعة خطأ على نبرة! فابتسم وتحلّى بصبر جميل حتى فهمت لأول مرة أن قواعد الإملاء تختلف مع الأسف من قطر عربي إلى آخر! ثم سألني وماذا أعجبك في الكتاب؟ فقلت: أعجبني أسلوب الكاتب في العرض، فهو بيِّن وواضح. قال فورًا: عليك إذن أن تلخص من كتبه كتابًا آخر عنوانه (علم اللغة)، وحدَّد لي موعدًا لعرض التلخيص عليه.

حضرت في الموعد المحدَّد غير مرتاح، لأنني قرأت معظم الكتاب، دون أن أستطيع تكوين فكرة واضحة عمّا قرأت. فبادرت أستاذنا أسأله لماذا جعل المؤلف عنوان كتابه (علم اللغة)، وكان حقه أن يقول علوم اللغة، لأن في العربية علومًا كثيرة، فأجابني: لأن موضوع الكتاب هو اللغة عمومًا، وليس اللغة العربية. فازداد الأمر غموضًا وإبهامًا في نظري. وسُقِط في يدي وأنا أصغي إلى شروح أستاذي، فلا أفهم. والآن أكاد أقول إنه لو كان لأستاذنا أن يرى ما سيكون في قابل الأيام، لكان قال لي: «يا بني، هذا علم جديد، قد يكون من المبكر عليك أن تخوض فيه. قد تلتقي بهذا العلم بعد خمسين سنة حاملاً اسمه الجديد، وهو (اللسانيات)!!

لقد باتت الكتب التي وضعها أستاذنا اليافي تؤلف مكتبه صغيرة تضمّ جميع الكتب

التي وضعها لتدريس العلوم المقرّرة على الطلاب، فضلاً على معجم متعدد اللغات يضم مصطلحات علم السكان بلغة عربية واضحة ومبينة. وقد وضع هذا المعجم الفريد بناء على طلب من منظمة الأمم المتحدة. ولا ينبغي أن ننسى أن بين هذه المؤلفات كلها ديوان شعر جميل.

غير أن الكتاب الأهم بين هذه الكتب – في رأيي – هو كتاب (الفيزياء الحديثة والفلسفة)، الذي كان مقررًا علينا،، نحن طلاب الفلسفة، في السنة الثالثة. وتتلخص أهمية هذا الكتاب – إن كان فيه شيء قابلاً للتلخيص – في أنه كشف عن شمول النسبية لقوانين الفيزياء الحديثة، فهي قوانين تسودها علائق الارتياب، وهي علائق تسمح منطقيًّا بتطوير الحقائق العلمية، وبتقدم العلوم. لقد كان القول بأن الأرض مسطحة حقيقة علمية في وقت من الأوقات. وكان القول بأن الأرض مركز المجموعة الشمسية وأن الشمس والكواكب الأخرى تدور حول الأرض حقيقة علمية في زمن مضى. وحين تغيرت الحقائق العلمية في العصور الغابرة لتحل محلها حقائق علمية جديدة، أصبح بالإمكان الحديث عن تقدم في العلوم يطوي صفحة قديمة، ليكتب صفحات جديدة قابلة للتدقيق والتمحيص في قابل الأيام. وهذا معناه أن العقل العلمي الحديث عقل متواضع ومستنير، وينبغي له، بناء على ذلك، أن يكون على استعداد دائم لقبول أي تطور في العلوم الحديثة، وأن يكون احتمال هذا التطور ماثلاً أمامه في كل حين، حتى لو كان هذا التطوّر كشفًا يغيِّر جزئية من قانون من قوانين الفيزياء، وحتى لو كانت الدوائر العلمية المختصة قد استقرّ رأيها على أن هذه الجزئية مبرهنة أو مثبتة.

وإني لأكاد أقول، بكلمة أخرى، لو أن العلماء في الماضي، لم يقبلوا الاكتشافات العلمية الجديدة، لما تطورت العلوم البتة، ولظلّ علماء الفلك يقولون إن الأرض مسطحة وإن الشمس تدور حول الأرض، وهذه كلها كانت حقائق علمية في عصرٍ من العصور. وعلى هذا يمكن القول إن الفيزياء الحديثة، التي تحكمها علائق الارتياب، تفرض على

علماء الفيزياء المعاصرين أن يقبلوا ما تحمله الأيام من تغيير في القوانين الفيزيائية التي تعلموها أو اكتشفوها، إذا أقيم البرهان على هذا التغيير بالشروط المعترف بها للبحث العلمي.

أيها الحفل الكريم

إن ذكرياتي، طالبًا، مع أستاذنا اليافي لا تكاد تنفد، فسأكتفي بأن أروي لكم واحدة منها وهذه خلاصتها:

ذات يوم من أوائل العام ١٩٥١، سألني أستاذنا الكبير: سمعت أنك تعرف فلانًا، فهل تعرفه حقًّا؟ (وكان فلان هذا شخصية مرموقة، وكان ذا مكانة ثقافية واجتماعية)، فأجبت: نعم أعرفه! وإذا به يقول لي: إن لديه – أي لدى فلان – مجموعة من الكتب النادرة والثمينة باللغة الفرنسية، بينها كتاب للعالم الإيطالي باريتو ([illegible])، وهو صاحب نظرية طريفة في علم الاجتماع، عرضها في كتابه «الأنظمة الاشتراكية»، وهو كتاب قديم ونادر، لم أعثر على نسخة منه في أي مكان، وأنا لا أريد لكتابي «تمهيد في علم الاجتماع» أن يصدر خاليًا من أي إشارة إلى هذه النظرية، فهلاَّ طلبت منه أن يعيرني هذا الكتاب بضعة أيام ثم أعيده؟ فوعدته خيرًا. لكنني خشيت، في سرّي، ألا أنجح في ذلك، وقلت في نفسي أنّى لطالب في مطلع العشرين من عمره مثلي، أن يحفل به وجيه مثقف مثل فلان، ويرضى بأن يعيره كتابًا نادرًا وثمينًا من مكتبته المنتقاة؟

الحق أنني ترددت كثيرًا قبل أن أستجمع أطراف شجاعتي، وأذهب إلى صاحبنا (فلان)، الذي كان يعرفني معرفة سطحية، ومن فوق إذا صح التعبير، فلما شرحت له طلبي، قال: عجبًا، ما لك أنت وهذا الكتاب؟!، فلما أُنطِقت أن أستاذي الدكتور عبد الكريم اليافي هو الذي يحتاج إلى هذا الكتاب لبضعة أيام، انفرجت أسارير الرجل وقال: أهو أستاذك؟ إنه عالم كبير!! ومضى إلى مكتبته، فأحضر الكتاب ومدَّ يده به إليّ قائلاً:

– سلِّم على أستاذك! أنا لا أعرفه مع الأسف، ولكن له سمعة عطرة كالمسك. وأنا

بشوق إلى لقائه!

رويت هذه الحكاية لأبيِّن مقدار ما كان يتمتع به أستاذنا الكبير من أمانة علمية، ومن حرص على جمع المصادر من مظانّها مهما كلفه هذا الجمع (الذي يحلو لبعض العلماء أن يطلق عليه مصطلح «التقميش») من جهد ومشقة، هذا الحرص الذي مردّه أن يكون عمله أقرب ما يكون إلى الكمال.

بقي أن أقول لكم إنه حين اكتملت، في نهاية العام الدراسي، طباعة كتاب «تمهيد في علم الاجتماع»، الذي كان يصدر منجَّمًا في ملازم متوالية، لم أجد - على ما أذكر - شيئًا عن باريتو أو عن نظريته، وهذا ما أثار فضولي، حتى إنني سألته حين سنحت لي أول فرصة عن السرّ في ذلك، فكان جوابه، إذا لم تخنّي الذاكرة: هذا شخص من الطبقة الأرستقراطية، وعلى جانب من الثراء، وقد أراد أن يجعل العلوم الإنسانية نوعًا من الترف الثقافي!!

ولقد أردت في الأيام القليلة الماضية أن أتحقق من صحة ذكرياتي عن (باريتو)، فعثرت على نبذة عنه في إحدى الموسوعات الفرنسية، تقول:

«هو المركيز فلفريدو فريديريغو سامازو باريتو: اقتصادي إيطالي، وُلد في باريس عام ١٨٤٨، وتوفي في سيلينيي بسويسرا عام ١٩٢٣، تولى أعمالاً مختلفة في إيطاليا، ثم انتقل إلى سويسرا، فشغل منصب أستاذ كرسي الاقتصاد السياسي في جامعة لوزان، منذ العام ١٨٩٣. بذل قصارى جهده ليجعل من الاقتصاد السياسي تطبيقًا من تطبيقات قوانين علم الحركة (الميكانيك)، مستعينًا في ذلك بالرياضيات. أهم مؤلفاته: «دروس في الاقتصاد السياسي (١٨٩٦ - ١٨٩٧)» و«الأنظمة الاشتراكية» الصادر في العام ١٩٠٢».

وهذا الكتاب هو الذي كان أستاذنا الكبير يبذل جهودًا مضنية للاطلاع عليه، فلما قرأه، خاب أمله فيه، على الأرجح.

لم يكن أستاذنا ومعلمنا الكبير - رحمه الله - يحصر همّه في إلقاء دروس على الطلاب،

وإنما كان يسعى إلى إسداء النصح إلى كل من يتصل به منهم.

من ذلك أنه أرشدني إلى ارتياد المكتبة الظاهرية كل يوم جمعة - لأن عطلتها الأسبوعية كانت يوم الثلاثاء - وكان، كلما التقاني، يسألني عن حالي، ويجيب بإسهاب عن كل سؤال قد أطرحه. وبعد تخرجي من الجامعة، كنت أشعر، كلما التقيته، أنه يهتم بمتابعة خطواتي - ولا سيما الثقافية منها - وكان لا يبخل علي بالتشجيع والثناء، وفي السنوات الأخيرة كان يتلطف معي فيشير إلي بقوله: صديقنا فلان، أو صديقي فلان ... وكنت في كل مرة أشعر بأنه يلبسني ثوبًا قشيبًا من الشرف الرفيع.

رحم الله أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي رحمة واسعة بقدر ما أحسن عملاً ونفع الناس، وأفسح له مقامًا رفيعًا في رحاب جنته.

والسلام عليكم

كلمة الدكتورة شادن اليافي

ابنة الفقيد

السلام عليكم

أرفع شكري إلى سيادة الرئيس الدكتور بشار الأسد لمواساته الكريمة، وأشكر نائبيه الوفيين الأستاذ فاروق الشرع والدكتورة نجاح العطار لمشاركتهما آلامَنا. أشكر أيضًا العماد أول، مصطفى طلاس لكرمه وأريحيته، وأشكرالسادة الوزراء والوزراء السابقين وأساتذة الجامعة والأصدقاء وأسرة مجمع اللغة العربية من أعضاء وموظفين، فقد كانت مواساتُهم خيرَ أمل لنا في تجاوز محنتنا الشاقة.

أيها الحفل الكريم

نحن نحتفل معكم بتأبين رجل عظيم، أنتم أسرته الكبيرة من زملاء وأحباب وطلاب ومريدين. ولكن لساني يعجز عن إيجاد كلمات تليق ببلاغته، فقد كانت اللغة العربية كما كان يقول تسري في عروقه وفي عظامه.

لا أقول إن أبي كان نبيًّا أو وليًّا ولكنه كان يتصف بصفات الأولياء والأنبياء. فهو من أحلم الناس وأشجع الناس وأعدلِهم وأكرمهم. كان مرهفَ الإحساس عميقَ التواضع والحنان، لا يزدري فقيرًا لفقره ولا يلوم شخصًا على جهله، ويأخذ بيد الناس أيًّا كانت صفاتهم. ويحب الآخرين، كل الآخرين مهما خالفوه في الرأي والموقف. يبدأ من يلقاه بالسلام والمصافحة فيواسيه إن كان حزينًا ويشاركه سعادته إن كان سعيدًا، ويخف إلى نجدته إن كان خائفًا ويتعهده إن كان يائسًا.

كان يحرِص على الوضوء وقت الفجر مهما كان الطقس باردًا. ولم يترك صلاةً في موعدها مدى حياته. وما يزال يرن في أذني صوتُه الدافئ وهو يتلو آيةً كان يرددها

كثيرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]

لقد زها العالم بأسطورة تدعى عبد الكريم اليافي، وتزين بحبه العملاق لجميع الكائنات. والآن أصبح العالم قفرًا يبابًا ينعيه مع الناعين.

إن الخلود هو لأعمال الإنسان العظيمة وما تتناقله الأجيال من أفكاره وحكمته. هناك قول شائع: «من خلَّف لم يمت» ولكن كثيرًا من العظماء أمثال المعري وبتهوفن وشوبنهاور وليوناردو دافينشي لم يخلفوا أولادًا، إنما بقاؤهم كان في أعمالهم التي خلَّدها الزمان. سيخلد والدي لا لأنه أنجب ولدين، بل لأنه أنشأ أجيالاً من المثقفين، ووضع كتبًا وبحوثًا في الفلسفة والآداب وعلم النفس وعلم الاجتماع والفيزياء، يتناقلها كلُّ مريدي العلمِ والمعرفة. لقد أفنى نفسه في هذه المعارف التي تَنشُد الحقيقة وتتحرى معنى الوجود، وتتبينُ كُنهَ الحرية الإنسانية الحق. وأنا التي عَرَفتُه عن كثَب أقول إنه جاوز إنسانيتَه ليتصف بصفات أولياء الله الصالحين. فذكاؤه المتوقد كأنه نفحةٌ من روح الله، وطيبته وإيمانه وحبه لوطنه وقومه ودينه والإنسانية جمعاء لا مثيل لها.

كان أبي مثالَ الأب المحب الصالح الحنون. منحني وأخي حبًّا عميقًا غير مشروط، شجعنا منذ صغرنا على التعبير عن أنفسنا في واحة من القبول والاستحسان والآمال العالية. طفنا معه في الأسفار فتعلمنا منه حب جميع الشعوب واحترام سائر الثقافات والمذاهب. كما تعلمنا منه التواضع والصبر والجلد على العمل.

لم تمنعه كثرةُ أشغاله من إعطائنا كثيرًا من وقته واهتمامه. فكان يصطحبنا إلى دروس الموسيقى والرسم والخط ويساعدنا في المشاريع العلمية المدرسية. كم أمضينا من الساعات الممتعة ونحن نشيد مجسمات براكين ونصنع أنواع الموازين والدارات الكهربائية، بل كنا نسترسل أحيانًا في لهو علمي فنصنع قناديل مضيئة من قشور الحمضيات ونؤلِّف أحجيات رياضية تحيَّر الأساتذة. كان يلقننا أشعارًا رائعة للمتنبي

والشيرازي وبول إيلوار ولامارتين. وحاول جاهدًا تعليمَنا أسماء النجوم وتمييزَها بعضَها عن بعض ليلاً ولكن عبثًا ..لم نفلح . أنى لنا أن نلحق بذكائه الخارق وذاكرته العجيبة. لعل أهمَ ما وهبنا والدي هو الحرية، حرية مطلقة لاختيار مسارنا في الحياة.

لا بد لي أن أذكر أن والدي كان مثالاً يحتذى للرجل المتفتح العصري الذي يؤمن أن المرأة عنصر فعال في المجتمع ونِدٌّ له. كان يستشير والدتي في كل أعماله، ويعهَد إليها بمراجعة كتبه وأبحاثه وتنقيحِها. ولم يجد حرجًا في مساعدة أمي في تنشئتنا، فساند رغبتها في الاستمرار بالعمل خارج المنـزل. واضطره ذلك إلى تنمية موهبته في الطبخ. وشغفه الطبخُ كثيرًا فظل طوالَ حياتِه يحضر بعض الوجبات الشهية وغير المألوفة!

لعل أبي شعر في السنة الأخيرة بدنو الأجل فكان يردد هذه القصيدة لمولانا جلال الدين الرومي:

أيها العشاق! هذا وقت الرحيل عن العالم

ها هي طبول الرحيل تدق في السماء وتصل إلى مسامع روحي. فتنبّه!

لقد نهض الجمّال وهيأ القافلة وشدّ الرحال، وطلب منا كلَّ ما هو حلال.

فلماذا تظلُّ في غفلة أيها المسافر!

هذه الأصوات التي تحيط بك من خلف وقدام إنما هي أصواتُ الرحيل. وفي كل لحظة من اللحظات تسري نفسٌ ويسري نفَسٌ إلى لا مكان.ومن هذه الشموع المقلوبة ومن هذه الحجب الزرقاء خرجت المخلوقات العجيبة لتجعل ما في الغيب عيانًا.

وقد أصابك نوم ثقيل في دوران هذه الأفلاك.

فيا لوعتا على هذا العمر الضئيل ويا حَذَرا من هذا النوم الثقيل.

ويا قلبي عليك بالحبيب! يا أيها القلب الحبيب سر إلى لقاء الحبيب.

ظل أبي واعيًا ومتقد الفكر حتى النهاية.وفي اليوم الأخير من حياته كنت أقرأ له مقاطع من كتاب الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي وكان يصحح لي هفواتي في اللغة العربية.

كثيرًا ما كان والدي يقول: قلوب الأحباب كَنـز الإنسان. وقد ترك لي بعد وفاته كنـزًا من الأحباب والأصدقاء يفوق كل الكنوز. واليوم أينما أذهب أسمع كلمات الحب والحنان تأتيني من كل حدب وصوب ومن كل فئات المجتمع. فكلٌّ ينشِد رسوخَ انتمائه القومي وعلوَّ أفقه الإنساني، واتساع علمه وعمق ثقافته، إلى جانب تواضعه الشديد وشخصيته المحببة البسيطة. وها أنتم تسارعون في هذا الحفل الكريم لتشيدوا بمزاياه وبذكراه الطيبة. ولكن هيهات...قلبي يغوص في الظلام وأنا أدهش كيف لم يحمه حبي الكبير من الموت...

أيام من الحزن المضني أمضيها بعيدة عنك يا أبي

ماذا بقي من عينيك الخضراوين وابتسامتِك المتواضعة؟

ماذا بقي من محادثاتنا حول الصوفية والمعري وبتهوفن؟

ماذا بقي من الضحكات والدُعابات؟

أنىّ لي أن ألمس جبهَتك العريضة وأقبِّلَ يديك الناعمتين مرةً أخرى؟

لقد كنتَ حياتي وحبي وغاية وجودي، أهيمُ اليوم وحيدةً كطيف في الصحراء...

مازلت أنتقي الفاكهة التي تحب... وأحضِّر القهوة كما تحب... وأعتني بصغار الحيوانات وأسقي النباتات كما علمتني

سعادتي كانت افتخارك بي

أعزف الموسيقى فأسمع اسمك يتردد في كل النغمات

مازلت أشم عبيرك عبيرَ الخزامى في كل أرجاء المنـزل

لقد أصبحتَ روحًا بلا جسد وأنا غدوتُ جسدًا بلا روح

وإذا جَنَّ الليل، وهدأت العيون، وأنس كل خليلٍ بخليله، أجتلب وجهك الحبيب وأحيي الليل إلى جوارك...

○ ○ ○